200321 ـ عقيدة وحدة الوجود عند الديوبندية

السؤال

أنتمي للمذهب الديوبندي الحنفي ، ويعتقد القادة الدينيون الديوبنديون عقيدة وحدة الوجود.. لذا فأرجو منكم إخباري ، هل هذا المعتقد من القرآن والسنة ، أم أنه كفر ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولا :

سبق في موقعنا الحديث المفصل عن " الديوبندية "، وبراءة الإمام أبي حنيفة من هذا الاعتقاد ، مع ذكر المراجع والنقول التي تشرح فكرة هذه الفرقة ومعتقدها وأهدافها . يمكن مراجعة ذلك في الفتوى رقم : (22473) ، ورقم : (150090) .

ثانيا :

من يطالع في الأبحاث المختصة التي درست " الديوبنية " ومراحلها وعقائد أئمتها يدرك أن ثمة تناقضا في الطرح بين أشهر قادتها ، أو على الأقل ثمة اختلاف في بعض المعتقدات ، التي سببها عدم عناية هذه الفرقة بتنقية تنظيرها من كل ما يقدح في سلامة المعتقد ، وصفاء منهاج البحث والتفكير ، إلا أن القاسم المشترك بينها اشتمالها على الكثير من الأفكار الفاسدة ، والمعتقدات الباطلة التي تناقض الكتاب والسنة وإجماع العلماء .

ومن ذلك القول بـ " وحدة الوجود " ، وهو " اعتقاد كون الوجود هو عين الله عز وجل "، وأهل هذا القول يسمون أيضا بـ "الاتحادية "، يؤمنون أن الله عز وجل متحد بالمخلوقات جميعها ، بحيث أصبح الوجود واحدا وليس وجودا متعددا ، ويسمون من يؤمن بهذه العقيدة " موحدا "، وهو في الحقيقة أبعد ما يكون عن التوحيد ، وقد سبق تفصيل تعريف هذه العقيدة وبيان بطلانها في الفتوى رقم : (147639) ، ورقم : (163948) .

وقد قال بهذه العقيدة جماعة من كبار أئمة الديوبندية بالوضوح الذي لا يمكن لأي باحث منصف إنكاره أو الاعتذار عنه ، ونحن ننقل هنا شيئا من تلك الأقوال الصريحة ، ونترك الأقوال المحتملة كي لا نطيل على القارئ :

يقول شيخ مشايخ الديوبندية الحاج إمداد الله المهاجر المكي (ت1317هـ) : " القول بوحدة الوجود حق وصواب " . انتهى من " شمائم إمدادية " للشيخ إمداد الله (ص/32) .

بل قال أيضا : " التفريق بين العبد والمعبود هو الشرك عينه " (ص/37) وتوسع في ذكر الوساوس الباطلة التي لبس بها الشيطان عليه في هذه العقيدة ، ولم يكتف حتى أضاف لذلك كله قوله الشنيع : " العبد قبل وجوده كان هو الرب باطناً ،

والرب هو العبد ظاهراً " .

ينظر " شمائم إمدادية " (ص/38) .

وقال الشيخ فضل حق الخير آبادي : " لو كلفت الرسل بالدعوة إلى وحدة الوجود ، لبطلت الحكمة التي من أجلها أرسلت الرسل ، فأمروا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم " .

ينظر كتابه " الروض المجود " (ص/44) .

ويقول محمد أنور شاه الكشميري (ت1352هـ) الملقب بإمام العصر – في شرح أحد الأحاديث: " في الحديث لمعة إلى وحدة الوجود ، وكان مشائخنا مولعين بتلك المسألة إلى زمن الشاه عبد العزيز ، أما أنا فلست بمتشدد فيها " ينظر " فيض الباري " (4/428) .

وقال صوفي إقبال – يمدح الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ـ: " أوقفنا على سر الوحدة (وحدة الوجود)، حيث بين لنا أن العشق والمعشوق والعاشق كلها شيء واحد " .

انتهى من كتاب " محبت " (ص/70) .

ويقول مؤلف كتاب " تعليم الإسلام ": " هناك مسألة في التصوف دقيقة جدا ، وهي مسألة وحدة الوجود ، وهي تعني أن الموجود كله الله ، ووجود ما سواه وهمٌ وخيال ... فعلم من ذلك أن قولهم لا موجود إلا الله . كلام صحيح " انظر كتاب " تعليم الإسلام " (ص/552) .

وهذه النقول استفدناها من كتاب " الديوبندية " (ص29–42) ، دار الصميعي، (1998م)، لمؤلفه الشيخ أبي أسامة ، سيد طالب عبد الرحمن ، مدير المعهد العالي للدراسات الإسلامية في روالبندي ، باكستان . والمراجع التي نقل منها ليست باللغة العربية ، لذلك لم نتمكن من الرجوع إليها مباشرة ، واعتمدنا فيها على كتابه الذي يعد من أهم المصادر في هذا الباب ، نظرا لندرة المؤلفات العربية لأئمة الديوبندية .

ثالثا :

أما بطلان هذه العقيدة " وحدة الوجود " فأمر متفق عليه بين العلماء ، لم يختلفوا في أنها عقيدة كفر وشرك ، ودعوا إلى محاربتها ومكافحتها ؛ لما تشتمل عليه من إلغاء للتوحيد الحقيقي الذي هو لب دين الإسلام وخلاصته .

والأدلة على بطلانها في الكتاب والسنة والعقل لا تعد ولا تحصى ، فمن ذلك قول الله عز وجل : (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ) الزخرف/15. وقوله سبحانه : (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) الصافات/159 .

فانظر كيف حكم الله عز وجل بكفر من جعل له من عباده جزءا ، ونسب إليه شيئا من خلقه ، فكيف يكون الحكم إذن فيمن ساوى بين الخالق والمخلوق في الوجود !

كيف لمسلم أن يدعي وحدة الوجود وهو يؤمن أن الله خالق كل شيء ، فكيف يجمع بين الخالق القديم الأزلي والمخلوق المحدث ، والله عز وجل يقول : (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً) مريم/9 ، ويقول سبحانه : (أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) مريم/67.

ومن يقرأ القرآن يجد أن من البدهيات المسلمات في جميع أنساق القرآن الكريم وخطاباته أن المخلوق غير الخالق ؛ قال تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) النحل/73 . فمن خالف هذا فقد ناقض قطعيات القرآن والدين .

ثم إن ما يلزم من دعوى وحدة الوجود من لوازم شنيعة كافية للكفر بهذه العقيدة الباطلة ، فمن آمن بها يؤول به الحال إلى استحلال الفواحش ، والتسوية بين الإيمان والكفر ، بدعوى أن العقائد كلها تؤول إلى الإيمان بوجود واحد على حد زعمهم ، وتؤدي أيضا إلى أن ينسب اللهَ جل جلاله إلى أخس الخلق وأقذر الموجودات من النجاسات والدواب وغيرها ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

ونحن ننقل هنا بعض هذه اللوازم الباطلة التي وجدناها في كتب " الديوبندية " أنفسهم ، ولو رحنا نسوق غيرها من كتب طوائف أخرى قديمة وحديثة لطال المقام كثيرا .

قال حكيم أمة الديوبندية أشرف علي التهانوي (ت1362هـ) عن الشيخ إمداد الله ـ الشيخ الأول في الديوبندية ـ : " قيل لموحد [من يعتقد بوحدة الوجود عندهم]: إذا كان الحلوى والخرء شيئاً واحداً ، فكُلِ الحلوى والخرء جمعاً ! فجعل هذا الموحد شكله شكل الخنزير . فأكل الخرء ، ثم حول نفسه من صورة الخنزير إلى صورة الآدمي ، فأكل الحلوى .

وقد علق على هذه الأسطورة الإلحادية الوثنية الشيخ أشرف علي الملقب بحكيم الأمة فقال: إن هذا المعترض على هذا الموحد كان غبياً ؛ ولذلك تكلف هذا الموحد هذا التصرف ، وإلا فالجواب ظاهر ، وهو أن الحلوى والخرء متحدان في الحقيقة ، لا في الأحكام والآثار " ينظر كتاب " إمداد المشتاق " (ص/101) لأشرف علي التهانوي . نقلنا ذلك من كتاب " جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية " لشمس الدين السلفي الأفغاني (2/790-791) .

وقال رشيد أحمد كنكوهي : " إن عددا كبيرا من بغايا مدينة (سهارنفور) كن من مريدي الشيخ ضامن علي الجلال آبادي – من أكابر الديوبندية – فنزل يوما عند واحدة منهن ، فاجتمعن في بيتها كلهن ، غير واحدة منهن ، فسأل الشيخ عن سبب غيابها ، فقلن بأننا قد حاولنا إقناعها للحضور لزيارتكم الكريمة ، ولكنها اعتذرت وقالت : أنا غريقة في المعاصي ، مسودة الوجه ، بأي وجه أستقبل الشيخ . فألح الشيخ عليهن بإحضارها عنده ، فلما جئن بها وحضرت بين يديه ... قال الشيخ : لم تستحين ؟ هل الفاعل والمفعول به إلا هو ؟ فما أن سمعت البغي مقال الشيخ حتى اشتعلت غضبا ، وقالت : لا حول ولا قوة إلا بالله ، أنا عاصية مسودة الوجه ، ولكنني أتبرأ من مثل هذا الشيخ كل البراءةُ ، وتولت مدبرة والشيخ جالس ناكس الرأس ندما وحياء " انظر تمام القصة في " تذكرة الرشيد " لمؤلفه الشيخ محمد عاشق إلهي الميرتي (2/242). نقلناه عن كتاب " الديوبندية " للشيخ أبي أسامة (ص/40).

نسأل الله السلامة والعافية ، ونرجو الهداية لكل من ضل عن الهدى .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

" [القول أن] وجود كل شيء هو عين وجود الخالق تعالى ، هذا منتهي الإلحاد ، وهو مما يعلم بالحس والعقل والشرع أنه في غاية الفساد ، ولا مخلص من هذا إلا بإثبات الصفات ، مع نفي مماثلة المخلوقات ، وهو دين الذين آمنوا وعملوا الصالحات " .

انتهى من " درء تعارض العقل والنقل " (1/ 283) .

ويقول أيضا رحمه الله :

" أما " الاتحاد المطلق " الذي هو قول أهل وحدة الوجود ، الذين يزعمون أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق ، فهذا تعطيل للصانع وجحود له ، وهو جامع لكل شرك " .

انتهى من " مجموع الفتاوى " (10/ 59) .

ومما قاله أيضا رحمه الله :

" وحدة الوجود الذين يقولون : عين وجود الخالق هو عين وجود المخلوق . كما يقوله ابن عربي ؛ وابن سبعين ؛ والقونوي ؛ والتلمساني ؛ وابن الفارض ؛ ونحوهم ، وهذا القول مما يعلم بالاضطرار شرعا وعقلا أنه باطل " انتهى من " مجموع الفتاوى " (18/ 222).

وحين بين شيخ الإسلام رحمه الله لوازم هذه العقيدة قال :

" حقيقة مذهبه [يعني ابن عربي] أنّ وجود الكائنات ـ حتى وجود الكلاب والخنازير، والأنتان والعَذِرات والكفار والشياطين ـ هي عين وجود الحق ، وأنَّ أعيان الكائنات ثابتة في القِدم ، لم يخلقها الله ولم يُبدعها ، بل ظهر وجوده فيها ، ولا يمكن أن يظهر وجوده إلا فيها ، فهي غذاؤه بالأحكام ، وهو غذاؤها بالوجود ، وهو يعبدها وهي تعبده .

وأن عين الخالق هو عين المخلوق ، وعين الحق المُنزَّه هو عين الخلق المُشبَّه ، وأن الناكح هو المنكوح ، والشاتم هو المشتوم ، وأن عُبَّاد الأصنام ما عبدوا إلا الله ، ولا يمكن أن يُعبد إلا الله .

وأن قوله : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) الإسراء/ 23 ، أي : حَكَم وقدَّر ، وما حكم الله بشيء إلا وقع ، فما عُبِد غير الله في كلّ معبود . وأن عُبَّاد الأصنام وقع تقصيرهم من حيث عبدوا بعض المجالي الإلهية ، ولو عبدوا كلَّ شيءٍ لكانوا عارفين كاملين ، وأن العارف الكامل يعلم ما عَبَد وفي أيِّ صورة ظهر حتى عُبِد ، وأن نوحًا عليه السلام أثنى على قومه بلسان الذمّ ، وأن أعيان المخلوقات هي نفس الخالق ، وأن موسى ما عَتَبَ على هارون لمَّا ذمَّ قومه على عبادة العجل إلا لضيق هارون حيثُ لم يعرف أنهم إنما عبدوا الله !

وأن السحَرَة عرفوا صدق قول فرعون : (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) النازعات/ 24 ، و (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) القصص/ 38 .

إلى أنواعٍ من هذه المقالات التي لا يعتقدها المسلمون ولا اليهود ولا النصارى ولا الصابئون ولا المشركون ، وإنما هي قول المُعطِّلة الذين ينكرون وجود الصانع ، وينكرون أن الله رب العالمين، وأنه خالق الخلق ، وهو حقيقة قول فرعون والقرامطة الباطنية الجاحدين لربّ العالمين " .

انتهى من " جامع المسائل " المجموعة السابعة (1/ 247-248) .

والله أعلم .